منزلة السنة وحجيتها

عندما نتحدث عن السنة النبوية المشرفة إنما نتحدث عن المصدر الثاني للتشريع ، فقد أجمع علماء الأمة وفقهاؤها وأصوليوها على حجية السنة النبوية، وأن طاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من طاعة الله (عز وجل)، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[1]، ويقول سبحانه:﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[2].

ويقول سبحانه: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[4].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[5].

ويقول سبحانه: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[6].

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) آل عمران: ١٣٢ .

(٣) آل عمران: ٣٢ .

(٤) الأنفال: ٤٦ .

(١) المائدة: ٩٢.

(٢) النور: ٥٤.

ويقول سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾[٧].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾[٨].

ويقول سبحانه : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾[٩].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[١٠].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمَا﴾[١١].

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[١٢].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾[١٣].

---

(٣) النساء: ٨٠.

(٤) النساء: ٦٩، ٧٠.

(٥) الأحزاب: ٧١.

(١) النساء: ١٣.

(٢) الفتح: ١٧.

(٣) النور: ٥١، ٥٢.

(٤) النساء: ٦٤.

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (١٤).

* * *

ويؤكد القرآن الكريم على ضرورة النزول على حكم النبي (صلى الله عليه وسلم) في حياته وعلى مقتضى سنته الشريفة في حياته وبعد وفاته (صلى الله عليه وسلم)، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(١٥)، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (١٦).

* * *

وقد نهى الحق سبحانه وتعالى وحذر من مخالفة أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١٧)، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(١٨)، ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) الحشر: ٧ .

(٢) النساء: ٦٥ .

(٣) الأحزاب: ٣٦ .

(١) النور: ٦٣ .

(٢) محمد: ٣٣ .

يَعۡقِلُونَ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾[١٩].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارٗا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾[٢١]، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [٢٢].

وبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن كل توجيه يصدر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) إنما هو وحي يوحى، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[٢٣]، وأنه (صلى الله عليه وسلم) إنما يدعونا لما يحيينا، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾[٢٤].

وقد جعل الحق سبحانه طاعة رسول الله واتباع سنته (صلى الله عليه وسلم) سببًا لمرضاته (عز وجل) وحبه، وبابًا لمغفرة الذنوب، فقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٢٥].

---

(٣) الأنفال: ٢٠، ٢٣ .

(٤) الأحزاب: ٣٦.

(٥) النساء: ١٤.

(٦) الجن: ٢٣.

(١) النجم: ١-٤ .

(٢) الأنفال: ٢٤ .

(٣) آل عمران : ٣١ .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله كَمَا حَرَّمَ الله"[٢٦]، ويقول (صلى الله عليه وسلم): "دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[٢٧]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "كُلُّ أُمَّتِي يَدخُلُونَ الجَنَّةَ إلاَّ مَنْ أَبَى، قيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُول الله ؟ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى"[٢٨].

وعن عبد الله بن عبَّاس (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: "تركتُ فيكم أيُّها الناس، ما إنِ اعتصمتم به، فلن تضلُّوا أبدًا: كتاب الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ "[٢٩]، وعن العرباض بن سارية (رضي الله عنه): أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِى فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَة "[٣٠].

---

(١) سنن الترمذي- كتاب العلم ، بَاب مَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ حَدِيثِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، حديث رقم (٢٦٦٤) ، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ، نشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، الطبعة: الثانية ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م..

(٢) صحيح البخاري - كِتَاب الِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، بَاب الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، حديث رقم (٧٢٨٨) ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، نشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

(٣) صحيح البخاري ، نفس الموضع السابق ، حديث رقم (٧٢٨٠) .

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم١/ ١٧١ حديث رقم (٣١٨) دار الكتب العلمية ، بيروت.

(١) سنن أبي داود –كتاب السنة ، باب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ ، حديث رقم (٤٦٠٧) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، نشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .

ويقول (صلى الله عليه وسلم): (فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)[٣١]، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصى اللهَ)[٣٢].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا): ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا وَاحِدَةٌ بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا، إِحْدَاهَا: قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[٣٣] فَمَنْ أَطَاعَ اللهَّ وَلَمْ يُطِعْ رَسُولَهُ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَالثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٣٤] فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يُزَكِّ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [٣٥] فَمَنْ شَكَرَ اللهَّ وَلَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَلِذَا قَالَ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "رِضَا الله فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ الله فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ"[٣٦].

ونقل ابن رجب الحنبلي[٣٧] عن الإمام أحمد بن حنبل[٣٨] (رحمه الله) أنه قال: أُصُولُ الْإِسْلَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ: حَدِيثُ عُمَرَ: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) وَحَدِيثُ عَائِشَةَ: (مَنْ

---

(٢) صحيح البخاري-كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣) ، وصحيح مسلم-كتاب النكاح ، بَاب اسْتِحْبَابِ النِّكَاحِ لِمَنْ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ، وَوَجَدَ مُؤَنَهُ ، حديث رقم (١٤٠١).

(٣) صحيح البخاري-كتاب الأَحْكَامِ، باب قَوْلِ الله تَعَالَى وَ{أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، حديث رقم (٧١٣٧)، وصحيح مسلم- كتاب الإِمَارَةِ ، بَاب وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم (١٨٣٥).

(٤) النساء : ٥٩ .

(٥) البقرة : ٤٣ .

(٦) لقمان : ١٤ .

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ١٧٧ باب في بر الوالدين حديث رقم (٧٨٣٠) ط: دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) هو: أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السّلامي البغدادي ، المعروف بابن رَجَب الحنبلي، ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ ، حافظ للحديث، بلغ درجة الإمامة في فنونه ، من أعلام المذهب الحنبلي ، من أهم مؤلفاته : جامع العلوم والحكم ، ولطائف المعارف، توفي في دمشق سنة ٧٩٥هـ . الأعلام للزركلي ٣/ ٢٩٥ ، نشر: دار العلم للملايين ، الطبعة: الخامسة عشرة ٢٠٠٢م .

(٣) هو: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي، وُلد في بغداد سنة ١٦٤هـ ، رابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي، توفي سنة ٢٤١هـ. (سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي (المتوفى :٧٤٨هـ) ١١/ ١٧٧، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، نشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) وَحَدِيثُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ). (٣٩)

وعن أبي داود السِّجِسْتاني(٤٠) أنه قال : الْفِقْهُ يَدُورُ عَلَى خَمْسَةِ أَحَادِيثَ: (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ) ، وَقَوْلِهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) ، وَقَوْلِهِ (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ)، وَقَوْلِهِ (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) ، وَقَوْلِهِ: (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ) ، (وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (٤١).

ولا يجادل في مكانة السنة النبوية المشرفة وحجيتها وعظيم منزلتها إلا جاحد أو معاند لا يعتد بقوله، فقد أجمع أهل العلم على أن السنة النبوية المطهرة هي المصدر الثاني للتشريع، ومن ثمة كانت العناية الفائقة بها، حفظًا، ورواية، وتدوينا، وتخريجا، وشرحا، واستنباطا للأحكام، غير أن وقوف بعض قاصري الفهم عند ظواهر النصوص دون فهم مقاصدها قد أدى إلى الجمود والانغلاق في كثير من القضايا، وهو ما يجعل الحديث عن الفهم المقاصدي للسنة النبوية أمرًا ضروريًّا وملحًّا لكسر دوائر الجمود والانغلاق والتحجر الفكري.

ولا شك أن السنة جاءت شارحة ومبينة ومتممة للقرآن الكريم، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤٢)، ويقول سبحانه: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (٤٣)، ويقول سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

---

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ١/ ٦١، ط: دار المعرفة – بيروت.

(٥) هو الإمام أبو داود ، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني ، إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سجستان ، صاحب كتاب السنن وهو أحد الكتب الستة ، توفي بالبصرة سنة ٢٧٥هـ. (سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٠٣) ط الرسالة ، والأعلام للزركلي ٣/ ١٢٢) .

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٦٢.

(٢) النحل: ٤٤ .

(٣) النساء: ١١٣.

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٤٤]، ويقول سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٤٥]، وقال (عز وجل): ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾[٤٦].

فقد ذكر الحسن البصري[٤٧] والإمام الشافعي[٤٨] (رحمهما الله) وغيرهما من أهل العلم وكثير من المفسرين أن الحكمة هنا هي سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[٤٩].

وقد تحدث العلماء والفقهاء والأصوليون عن حجية السنة حديثًا مستفيضًا، يقول الإمام الشافعي (رحمه الله): وضع الله (عز وجل) رسولَه (صلى الله عليه وسلم) من دينه وفرضِه وكتابِه الموضعَ الذي أبان - جل ثناؤه - أنه جعله علَمًا لدِينه بما افترض من طاعته، وحرَّم من معصيته، وأبان من فضيلته بما قرن بالإيمان برسوله (صلى الله عليه وسلم) مع الإيمان به ، فقال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [٥٠]، فجعل كمال ابتداء الإيمان الذي ما سواه تبعٌ له الإيمانَ بالله ورسوله،

---

(١) الجمعة: ٢ .

(٢) البقرة: ٢٣١ .

(٣) الأحزاب: ٣٤ .

(٤) هو: الحسن بن يسار البصري ، تابعي ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه ، مات سنة ١١٠هـ . (الأعلام للزركلي ٢/ ٢٢٦).

(٥) هو: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ القرشيّ ، ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي ومؤسس علم أصول الفقه ، ولد (رحمه الله) بغزة عام ١٥٠هـ ، ومن أهم مؤلفاته: كتاب الأم، والرسالة ، وهو أول كتاب صنف في علم أصول الفقه، توفي في مصر سنة ٢٠٤هـ . (الأعلام للزركلي ٦/ ٢٦).

(٦) راجع في ذلك: تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما للآية (١٢٩) من سورة البقرة.

(٥٠) الحجرات : ١٥.

فلو آمن عبد به ولم يؤمن برسوله لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبدًا حتى يؤمن برسوله معه[٥١].

ويقول (رحمه الله): لَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا نَسَبَهُ النَّاسُ أَوْ نَسَبَ نَفْسَهُ إِلَى عِلْمٍ يُخَالِفُ فِي أَنْ فَرَضَ الله عَزَّ وَجَلَّ اتِّبَاعَ أَمْرِ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتسليمَ لحكمه بأن الله (عز وجل) لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وأن ما سواهما تبع لهما وأن فرض الله تعالى علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) واحد[٥٢].

ويقول ابن حزم[٥٣] (رحمه الله): في أيِّ قرآن وُجِد أن الظهر أربع ركعات، وأن المغرب ثلاث رَكَعَات، وأن الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها والسلام، وبيان ما يُجْتَنَب في الصوم، وبيان كيفية زكاة الذهب والفضة، والغنم والإبل والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذ منها الزكاة، ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحج من وقت الوقوف بعرفة، وصفة الصلاة بها وبمزدلِفة، ورمي الجمار، وصفة الإحرام، وما يُجْتَنَب فيه، وقطع السارق، وصفة الرَّضاع المحرم، وما يحرم من المآكل، وَصِفَتَا الذبائح والضحايا، وأحكام الحدود، وصفة وقوع الطلاق، وأحكام البيوع، وبيان الربا، والأقضية والتداعي، والأيمان، والأحباس، والْعُمْرَى، والصدقات وسائر أنواع الفقه؟ وإنما في القرآن جُمَل لو تُركنا وإياها لم نَدْرِ كيف نعمل بها؟ وإنما المرجوع إليه في كل ذلك النقلُ عن النبي (صلى الله عليه وسلم)[٥٤].

---

(٥١) الرسالة للإمام الشافعي، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر ١/ ٧٥ ، ط: دار الكتب العلمية ، بيروت.

(٥٢) الأم للشافعي -كِتَابُ جِمَاعِ الْعِلْمِ ٧/ ٢٨٧ ، ط: دار المعرفة ، بيروت.

(٥٣) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي ، من أكبر علماء الأندلس ، من أهم مؤلفاته : المحلى ، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الإحكام في أصول الأحكام ، طوق الحمامة ، توفي سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤م. (الأعلام للزركلي ٤/ ٢٥٤).

(٥٤) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الظاهري ٢/ ٧٩ ، دار الآفاق الجديدة، بيروت .

ويقول الشوكاني[٥٥] (رحمه الله): اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقد ثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: (أَلا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ)[٥٦] أي: أوتيت القرآن وأوتيت مثله من السنة التي لم ينطق بها القرآن، وذلك كتحريم لحوم الحمر الأهلية، وتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير، وغير ذلك مما لا يأتي عليه الحصر[٥٧].

ويقول : والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام[٥٨].

ويقول الألوسي (رحمه الله)[٥٩]:{أَطِيعُواْ الله} أي: الزموا طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه {وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ}المبعوث لتبليغ أحكامه إليكم في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أيضًا، وأعاد الفعل - وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى - اعتناء بشأنه (عليه الصلاة والسلام) وقطعًا لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، وإيذانًا بأن له (صلّى الله عليه وسلّم) استقلالاً بالطاعة لم يثبت لغيره[٦٠].

ويقول الأستاذ/ عبد الوهاب خلاف [٦١] (رحمه الله): السنة إما أن تكون سنة مفصّلة ومفسِّرة لما جاء في القرآن مجملا، أو مقيِّدة ما جاء فيه مطلقا، أو مخصِّصَة ما جاء فيه عامًّا،

---

(٥٥) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهم مؤلفاته : نيل الأوطار ، وفتح القدير، توفي بصنعاء ١٧٥٩هـ-١٨٣٤م . (الأعلام للزركلي ٦/ ٢٩٨).

(٥٦) رواه الإمام أحمد في مسنده بنحوه ٢٨/ ٤١٠ حديث رقم (١٧١٧٤).

(٥٧) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني ١/ ٩٦ ، دار الكتاب العربي.

(٥٨) المصدر السابق ١/ ٩٦.

(٥٩) محمود شهاب الدين الألوسي ، نسبة إلى مدينة ألوس وهي جزيرة في وسط نهر الفرات بمحافظة الأنبار، مفسر، ومحدث، وفقيه، وأديب، وشاعر، تقلد الإفتاء ببلده عام ١٢٤٨هـ ، ثم انقطع للعلم، من أهم مؤلفاته: تفسير روح المعاني، توفي سنة ١٨٠٣هـ- ١٨٥٤م). (الأعلام للزركلي ٧/ ١٧٢).

(٦٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٥/ ٦٥ ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

فيكون هذا التفسير أو التقييد أو التخصيص الذي وردت به السنة تبيينا للمراد من الذي جاء في القرآن، لأن الله سبحانه منح رسوله حق التبيين لنصوص القرآن بقوله عز شأنه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٦٢]، ومن هذا: السنن التي فصلت إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، لأن القرآن أمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، ولم يفصل عدد ركعات الصلاة، ولا مقادير الزكاة، ولا مناسك الحج، والسنن العملية والقولية هي التي بَيَّنت هذا الإجمال؟ وكذلك ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا ﴾[٦٣]، والسنة هي التي بَيَّنَت صحيح البيع وفاسده، وأنواع الربا المحرم، والله حرم الميتة، والسنة هي التي بينت المراد منها ما عدا ميتة البحر، وغير ذلك من السنن التي بينت المراد من مجمل القرآن ومطلقه وعامه، وتعتبر مكملة له وملحقة به[٦٤].

وتأسيسًا على كل ما سبق من نصوص القرآن الكريم وسنة الحبيب محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأقوال أهل العلم، يتضح لنا إجماع أهل العلم على عظيم مكانة السنة النبوية، وعلى حجيتها شارحة ومفسرة ومبينة ومتممة، لا يجادل في ذلك إلا جاحد أو معاند، أو شخص لا حظَّ له في العلم ، ولا يعتد برأيه عند أهل الاعتبار والنظر.

* * *

---

(٦١) هو المحدث الأصولي، الفقيه، عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، ولد سنة ١٨٨٨م ،صاحب المؤلفات الكثيرة خصوصًا في علم أصول الفقه، عين قاضيا بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠م ثم نقل مديراً للمساجد بوزارة الأوقاف سنة ١٩٢٤م وبقي بها حتى عين مفتشاً بالمحاكم الشرعية في منتصف سنة١٩٣١م. انتدبته كلية حقوق جامعة القاهرة مدرساً بها في أوائل سنة ١٩٣٤م وبقي أستاذا للشريعة الإسلامية حتى أحالته إلى المعاش سنة ١٩٤٨م، توفي ١٣٧٥هـ، (انظر ترجمته في مقدمة كتابه (علم أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع) ص ٣ .

(٦٢) النحل: ٤٤ .

(٦٣) البقرة : ٢٧٥ .

(٦٤) علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ، ص ٤٠ ط: مطبعة المدني بمصر.